الزَّوَاجِرِ الربَّانِيَّة

لتاركِ الجِهاد والقاعدِ عنه من دونِ عُذْرٍ شرعيّ

(مقال من صحيفة النبأ، العددين: ١٤٢، ١٤٣)

الزواجر الربانية لتارك الجهاد والقاعد عنه من دون عذر شرعي

١

الحمد لله ذي العزة والجلال والصلاة والسلام على الضحوك القتال، وعلى آله وصحبه الكرام الأبدال أهل الحرب والنزال، وبعد..

فإن للجهاد شرفًا وقدرًا لا يكاد يفضُله بهذا القدر عملٌ حاشا الفرائض التي افترضها الله على عباده، هذا إن كان فرضَ كفاية فإذا كان فرض عين فلا شيء بعد الإيمان أفضل منه.

ولا يوجد عمل حذّر الله من تركه وذم القاعدين عنه وتوعدهم بأنواع العقوبات في الدنيا والآخرة ووصف تاركيه بأقذع الصفات ونفّر منه أشد التنفير كما حذّر من ترك الجهاد في سبيل الله.

ولا يوجد عمل تهاون الناس في تركه وكثُر القعود عنه وتناسَوا فضله كالجهاد في سبيل الله، بل قد وصل الحال إلى أن صُدّ الناس عنه ولُمز أهلُه والقائمون به، مع أنهم خيرة خلق الله وزبدة شباب الأمة فأصبح حال الجهاد كما قال ابن النحّاس رحمه الله: "اندرست آثاره فلا تُرى، وانطفأت أنواره من بين الورى، وأظلم نهاره بعد أن كان نيّرا، وذوى غصنه بعد أن كان مورقًا، وأُهملت أسبابه فلا تُرمق، وأُغلقت أبوابه فلا تُطرق، وصمتت طبولُه فلا تنبض، وقَعَدت خيولُه فلا تركُض، وامتدت أيدي الكفرة الأذلّاء إلى المسلمين فلا تقبض..." إلى آخر ما قال رحمه الله.

فكان ذلك حافزًا لأن نجمع من كتاب الله وسنة رسوله ما تيسر من ذكر العقوبات الإلهية والزواجر الربانية لتارك الجهاد والقاعد عنه من دون عذر شرعي، عسى أن يكون حافزًا للقاعدين على النفير وللمجاهدين على الثبات.

والله أسأل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح وأن يجعل عملنا كلَّه صالحًا وأن يجعله لوجهه خالصًا وألا يجعل لأحد بعده شيئا إنه جواد كريم.

وقد جاء ذم المولى سبحانه للقاعدين عن الجهاد في عده مواضعَ من كتاب الله سبحانه، منها :-

١. أن الله سمى من يقعُدُ عن الجهاد بالكاذب على الله قال تعالى: {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فكيف يكون حال من يصفه الله بالكذب؟ فمهما ادّعى من صدقه في قوله أو فعله أو وعوده فهو كاذب في دعواه، وبذلك يتضح كذب مدعي العلم من السرورية والإخوان والجامية وغيرهم ممن قعد عن الجهاد الواجب عليه، فلا ينبغي للمسلم أن يستمِعَ لترّهاتهم وأقوالهم فكفى بقعودهم دليلاً على تلبّسهم بالكذب الفاضح أخزاهم الله.

٢. أن الله وصف من يقعد عن الجهاد بأنه مفتون بل ساقط في الفتنة، قال المولى سبحانه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩]، فكل من قعد عن الجهاد وادّعى أنه يتوقّى بقعوده الفتنَ، فهو في الفتنة ساقط، والفتنة الانحراف عن الدين والقاعد منحرف عن أمر الله إلى هوى نفسه، فكل من دعاك إلى ترك الجهاد أو قعد عن الجهاد فاعلم أنه مفتون قد حرف الله قلبه عن الحق إلى الباطل، وصرفه عن الهدى إلى الضلال، وعن الرشاد إلى الغي.

٣. القعود عن الجهاد من أوضح العلامات الدالة على النفاق، قال المولى سبحانه: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١١]، وقال جل شأنه: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ.. } [آل عمران: ١٦٧]، وفي سورة الأحزاب قوله تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا... الآيات}، وغيرها آيات كثيرة.

فالنفاق ذلك المرض الذي يفتك بالقلوب وبالإيمان، بل يفتك بالمجتمعات المسلمة المؤمنة، وأعظم كاشف له ومبيِّن لأماراته هو الجهاد في سبيل الله، ولذلك يفرُ من ذِكْرِ الجهادِ علماءُ السوء ودعاة الضلالة؛ لأنه مبيِّنٌ لنفاقهم وخبث طويتهم وبَوارِ سلعتهم، فإذا ما حدثْته عن الجهاد تغيّر وجهُهُ وعبس في ناظريك وتقطّب وحشد شبهاتِه وجمع من ذهنه زبالات أفكاره وأخذ يروغ كما يروغ الثعلب ويرغي ويزبد كما يُرغي القط، يريد أن يدفع عن نفسه أصابع الاتهام بالنفاق والكذب والفتنة.

وأنّى له ذلك وكيف يستطيعه وهذه الصفات لا يُلصقها به بشر بل يخبر عن مكنونات نفسه رب البشر سبحانه جل شأنه، فما أكثر المنافقين في زماننا المجاهرين بالردّه المحاربين لدين الله جهرة، (ألا قبّحها الله من لحى مأجورة وألسن مبتورة وأنفس موزورة).

فهؤلاء لما استحكم النفاق في قلوبهم قالوا: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}، فضعفت قلوبهم أمام الشدائد فكانوا عرضة للفتن لو تمكن الكفر من ديارهم {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا}، فخانوا عهدَ الله وميثاقه وعصوا أمره بعدم الفرار من ساحة القتال {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا}.

٤. أن القاعد عن الجهاد وصفه الله بالفسق، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤].

فتارك الجهاد بغير عذر شرعي فاسقٌ وإن كان ممن لا يفارقون الصف الأول أو ممن يقومون الليل ويصومون النهار، فإنه فاسق، فكيف يستطيع المؤمن أن يعيشَ ويتنفّس ويأكلَ ويشربَ وهو فاسق، والذي وصفه بهذا الوصف هو خالقه ورازقه، فالله المستعان.

٥. أن الله وصف القاعد عن الجهاد بأنه مرتاب القلب قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ...}]التوبة ٤٥، ٤٦[.

وهذه الآية نزلت في المنافقين الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الغزو مع المسلمين في جهاد الطلب. ذكر ابن كثير وابن جرير الطبري رحمهما الله عن ابن إسحاق قال: كان الذين استأذنوه فيما بلغني، من ذوي الشرف، منهم: عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، والجدّ بن قيس، وكانوا أشرافًا في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم، أن يخرجوا معهم، فيفسدوا عليه جنده.

فأخبر الله أن الاستئذان في القعود عن الجهاد ليس حال المؤمنين الصادقين وإنما هو حال المرتابين المتشككين، فما قعد قاعدٌ عن الجهاد إلّا لضعف يقينه بأن الله مظهرٌ دينه وناصرٌ أولياءه ومعز دينه، وما قعد قاعدٌ عن الجهاد إلا لقلة يقينه بما بعد الموت بما أعده الله لعباده المجاهدين من الثواب الجزيل والخير العميم، وما قعد إلا صاحب ريبة في هذا الدين وأنه الحق وأنه يستحق أن يبذل له كل شيء من مال ووقت وأهل ونفس.

والقاعد ضعيفُ اليقينِ بالعهد الذي بين الله وبين أوليائه، فليس هو من أهله بل هو محروم منه.

أمّا مَن صَدَقَ يقينُه وعظُمَ إيمانه فإنه لا يرى غير الجهاد سبيلاً.

الزواجر الربانية لتارك الجهاد والقاعد عنه من دون عذر شرعي

٢

الحمد لله ذي العزة والجلال والصلاة والسلام على الضحوك القتال، وعلى آله وصحبه الكرام الأبدال أهل الحرب والنزال، وبعد..

لا زلنا نستعرض ذم المولى سبحانه للقاعدين عن الجهاد في عده مواضعَ من كتاب الله سبحانه، وقد أشرنا لخمسة منها في مقالنا السابق، تحريضاً على النفير وذماً ومعاتبة لمن قعد عن الجهاد وزجراً له، وبياناً لما يورثه القعود وآثاره السلبية على النفوس.

٦. فالقاعد عن الجهاد مطبوعٌ على قلبه لا يفقه ولا يعلم، قال تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}، وقال تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، انظر أيها القاعد إلى هذا الذم الشديد والتقريع المؤلم.. ممن ؟ من خالق هذا الكون ومدبره وصانعه من الله جل جلاله ذمٌ لمن قعد عن الجهاد وتركه ورضِيَ بالقعود مع النساء والصبيان ومن لا يطيق القتال.

عجبًا ! كيف يرضى مؤمن عاقل بهذا التوبيخ وبهذا اللوم؟ ثم انظر كيف يخبرنا بدخيلة نفس القاعد، كيف أن الله يطبع على قلبه؟، قال ابن جرير الطبري رحمه الله : "يقول: وختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين" أي ختم عليه فلم يفقه ولم يعلم، فطُبع على قلب القاعد مرتين فحُرِم من الفَهم وحُرِم من العِلم، فكيف يدّعِي قاعدٌ بعد ذلك العلم وكيف يؤخذ العلم من قاعد؟ تالله لطالبُ علمٍ في أرض الجهاد خيرٌ من ألف علّامةٍ قاعدٍ بين النساء والأولاد، ولمسلمٌ عاميٌ مجاهدٌ خير من مِلءِ الأرض من علماء القعود الذين يشارُ إليهم بالبنان.

ثم بعد ذلك ترى هؤلاء القاعدين يلمِزون المجاهدين بأنهم لا علم لهم -زعموا- وأنهم حدثاء أسنان، وتراهم لا يحفظون للمجاهدين حقًا ولا ينشرون لهم فضيلة، فلبئس العلم ذلك العلم الذي يقعدكم عن الجهاد، ولبئس العلم ذلك العلم الذي يجعلكم تستطيلون بألسنتكم على مجاهد يدافع عن أعراضكم ودينكم.

٧. توعد الله القاعدين عن الجهاد بالعذاب الأليم قال تعالى: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}

ففي هذه الآيات موعظة بالغة لمن له قلب ولمن كان يحمل في طيات نفسه تعظيمًا لله عز وجل، وما توعّد الله تاركَ الجهاد بالعذاب الموجع البالغ في الألم إلا لعظيم ذنب القاعد وكبير ظلمه، جاء في الأثر "استنفر الرسول صلى الله عليه وسلم حيًا من أحياء العرب فأبوا فأمسك الله عنهم المطر فكان هذا عذابهم"، وعقابهم هذا عَمَرَ كلَّ من في الحي حتى البهائم والحشرات والهوام؛ لأن المطر مُسِك عنهم جميعًا فشؤمُ معصية القاعدِ تعمر على الجميع حتى على من ليسوا مخاطبين بالجهاد بل حتى على من ليسوا مخاطبين بالتكليف الشرعي. هذا في الدنيا وعذاب الآخرة أشد وأنكى وأبقى لا يطيقه القاعد بحظ خيس من الدنيا الفانية فسيظهر له يوم القيامة قدر الغبن الذي أصابه والمصيبة التي ظهرت على أم رأسه.

٨. من ترك الجهاد توعّده الله بالاستبدال بمن هو خير منه، فقد أثبت القاعد عن الجهاد عدم جدارته بتحمّل أمانه الدين والحفاظ عليه، لما أسلم القياد لأعداء الملة يحرفونها كيف شاؤوا، فوجبت في حقه سنة الاستبدال الماضية إلى يوم القيامة.

قال تعالى: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ...}، {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}.

والناظر في مسيرة الجهاد خلال ثلاثين سنة مضت وجد أن الله استبدل أقواما كثيرين نكثوا عهودهم وأبطلوا جهادهم وتحولوا من مجاهدين يبغون رضا الله إلى منافقين يبغون رضا شياطينهم وأهوائهم وإسخاط ربّهم وخالقهم سبحانه، فانظر إلى الكثير من التنظيمات والجماعات والرايات كيف اندثرت وانتهت وانتكست، وبقيت دولة الإسلام تقارع أمم الكفر ثابتة ماضية في إنفاذ وعيدها، وبقي لواء الجهاد مرفوعا في أرض الرافدين، ثم بارك الله بجهادهم فامتد لأرض الشام المباركة ثم يسر الله لهم إعلان الخلافة فجمعوا بذلك الشتات وهدموا كل فرقة، فعم جهادهم أصقاع الأرض حتى وصل صداه لعقر ديار أمم الكفر.

٩. من ترك الجهاد المتعين تعرّض لغضبِ الجبّار وسخطه.

قال تعالى: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، فهذا وعيد شديد قلّ نظيره في القرآن، على من ترك الجهاد وآثر الدنيا ولم يعذر بسبب خوفه من الموت والقتل، مع أن الخوف من الموت أو القتل غريزيّ في فِطَر بني آدم، فكيف بمن قعد عن القتال وهو مع ذلك يطعنُ في المجاهدين أو يخذّل من سلك طريق الجهاد ؟ لاشك أنه أولى بهذا الوعيد الذي تنخلع له القلوب المؤمنة من ذلك الذي سلك طريق الجهاد ثم هو غلب عليه الخوف الطبيعي وآثر السلامة وفرّ من المعركة.

فأين القاعدون عن الجهاد ؟ أما لهم قلوبٌ تفقه؟ أما لهم آذان تسمع ؟ أما لهم أعين تبصر؟ كيف طاب لهم قعودهم وهم متعرضون لغضب الجبار وغضب العزيز القهار؟

وإذا كان هذا الوعيد لمن تحمّل عناءَ الجهادِ وسفره وأنفق من ماله وكابد العطشَ والجوعَ والنصبَ وقاتل وبدأ القتال، ثم هو غلبت عليه ذنوبه ففرّ من ساحة المعركة فتعرض لهذه العقوبة الشديدة، فكيف بمَنْ لم يضع قدمًا واحدة في أرض الجهاد مع قوة الداعي وفَرَضيّةِ الأمر وتكالُبِ الأعداء، فلا شكّ أنه بالوعيد أولى وبالعذاب أحرى، ولا حول ولاقوه إلا بالله.

١٠. جهنم في انتظار القاعدين عن الجهاد ما لم يتوبوا أو تدركهم رحمة الله.

قال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}

أيها الضعيف.. يا من تركت الجهاد وسلكت غير سبيل رب العباد، ألك صبر على حرِّ النارِ أم فيك قوة على عذابها ؟ فهي والله قد اشتد حرها وغلى حميمُها ونَتَنَ زقومها وغسلينُها، قعرُها بعيد وسلاسلها من حديد وملائكتها غلاظ القلوب وأولو بأس شديد.

فهل لك بهم من طاقة ؟ آثرت اللذائذ في الدنيا فكانت جهنم لك مأوى بَخِلتَ بنفسك في سبيل الله فعوقبت بعذاب قد اشتد لظاه، اترك اللذائذ قليلاً تَفُز بالنعيم طويلاً فالله عزيزٌ ذو انتقام قد أعد جهنّم لأهل الذنوب والآثام.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم ونسأل الله أن تكون هذه الكلمات نورا يستضيء به كل من ضل السبيل.